في سبيل الإصلاح

من أخـــلاقنا

للأستاذ علي الطنطاوي

أليس عجيبا أن صار اسم (الوعد الشرقي) علما على الوعود الكاذبة ، واسم (الوعد الغربي) علما على الوعد الصادق ؟

من علم الغربيين هذه الفضائل إلا نحن ؟ من أين قبسوا هذه الأنوار التي سطعت بها حضارتهم ؟ ألم يأخذوها منا ؟

من هنا أيام الحروب الصليبية ، ومن هناك من الأندلس بعد ذلك ، وهل في الدنيا دين إلا هذا الدين (الشرق) يجعل للعبادات موعدا لا تصح العبادة إلا فيه ، وإن أخلفه المتعبد دقيقة واحدة بطلت العبادة ؟ إن الصوم شرع لتقوية البدن — وإذاقة الغني مرارة الجوع حتى يشفق على الفقير الجائع — وكل ذلك يتحقق في صوم اثنتي عشرة ساعة ، واثنتي عشرة ساعة إلا خمس دقائق ، فلماذا يبطل الصوم إن أفطر الصائم قبل المغرب بخمس دقائق ؟ أليس لتعليمه الدقة والضبط والوفاء بالوعد ؟ ولماذا تبطل الصلاة إن صليت قبل الوقت بخمس دقائق ؟

والحج ؟ لماذا يبطل الحج إن وصل الحاج إلى عرفات بعد يوم الوقفة ، أليس لأن الحاج قد أخلف الوعد ؟

أو لم يجعل الإسلام إخلاف الوعد من علامات النفاق ، وجعل المخلف ثلث منافق ؟ فكيف نرى بعد هذا كله كثيرين من المسلمين لا يكادون يفون بموعد ، ولا يبالون بمن يخلف لهم وعدا ، أو يتأخر عنه ، حتى صار التقيد بالوعد ، والتدقيق فيه والحرص عليه ، نادرة يتحدث بها الناس ، ويعجبون بصاحبها ويعجبون منه ... وحتى صارت وعودنا مائعة مائعة لا تعرف الضبط ولا التحديد

يقول لك الرجل (الوعد صباحا) صباحا ؟ في أي ساعة من الصباح ؟ في السادسة ؟ في السابعة ؟ في الثامنة ؟ إنك مضطر إلى الانتظار هذه الساعات كلها . (الوعد بين الصلاتين) وبين الصلاتين أكثر من ساعتين . (الوعد بعد العشاء). أهذه مواعيد ؟ ! هذه مهازل وسخريات ، لقوم لا عمل لهم ، ولا قيمة لأوقاتهم ، ولا مبالاة لهم بكراماتهم !

هذه مواعيدنا في ولائمنا ، وحفلاتنا ، وفي اجتماعاتنا الفردية والعامة

دعيت مرة إلى وليمة عند صديق لي قد حدد لها ساعة معينة هي الساعة الأولى من بعد الظهر ، فوصلت مع الموعد فوجدت المدعوين موجودين إلا واحدا له عند صاحب الدار منزلة . وتحدثنا وحلت ساعة الغداء وتوقعنا أن يدعونا المضيف إلى المائدة فلم يفعل ، وجعل يشاغلنا بتلك الحديث ، وروائح الطعام من شواء وقلاء وحلواء ، تملأ آنافنا ، وتصل إلى معدنا الخاوية ، فتوقد فيها نارا ، حتى إذا اشتد بي الجوع قلت :

— هل عدلت عن الوليمة ؟

فضحك ضحكة باردة وخالها نكتة ، فقلت :

— يا أخي جاء في الحديث أن امرأة دخلت النار في هرة .. حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . ونحن جماعة وهي واحدة ، وهي قطة ونحن بشر !

فتغافل وتشاغل . ثم صرح فقال : حتى يجيء الشيخ فلان

— قلت : إذا كان الشيخ فلان قد أخلف الموعد ، أفنعاقب نحن بإخلافه ؟ وهل يكون ذنبنا أنا كنا غير مخلفين ؟

* * *

والحفلات مثل الولائم ، يكتب في البطاقة أنها تبدأ في الساعة الرابعة ، وتبدأ في نصف الخامسة . وأعمالنا كلها على هذا النمط ، ركبت مرة الطيارة من مطار ألماظة في مصر فتأخرت عن القيام نصف ساعة انتظار راكب موصى به من أجد أصحاب المعالي . ولما ثرنا معشر الركاب وصخبنا طار بنا ، فلم يسر والله ربع ساعة حتى عاد فهبط فارتعنا وفزعنا وحسبنا أن قد جرى شيء ، وإذا العودة من أجل الراكب المدلل صديق صاحب المعالي ، وقد كان تأخر لأنه لم يحب أن يسافر حتى يدخل الحمام ، ويستريح بعد الخروج كيلا يلفحه (اسم الله عليه) الهواء البارد . وكنت عائدا من رحلة رسمية فلما وصلت إلى مطار المزة وجدت أكثر

من مئتي إنسان بينهم مندوب وزير العدل ، ينتظرون في الشمس منذ ساعة كاملة

والسيارات مثل الطيارات ، والدكاكين والدواوين ، والمقاهي والملاهي ، كل ذلك يقوم على تبديل المواعيد وإخلافها ، حتى لم يبق لشيء موعد معروف . فيا أيها القراء خبروني سألتكم بالله ، أي طبقة من الناس تفي بالموعد ، وتحرص عليه وتصدق فيه ، وتدقق في إنجازه ؟ الموظفون ؟ المشايخ ؟ الأطباء ؟ المحامون ؟ الخياطون والحذاؤون ؟ سائقو السيارات ؟ من ؟ من يا أيها القراء ؟

يكون لك عند الموظف حاجة لا يحتمل قضاؤها خمس دقائق ، فتجيئه وهو يشرب القهوة ، أو يقرأ الجريدة ، أو يشغل نفسه بما لا طائل تحته ، فيصعد فيك بصره وبصوبه ، ويقومك بعينه ، فإن أنت لم تملأها ، ولم تدفعه إلى مساعدتك رغبة فيك ، أو رهبة منك ، قال لك : ارجع غدا . فترجع غدا ، فيرجئك إلى ما بعد غد ... لا أعني موظفا بعينه ، ولا عهدا بذاته ، بل أصف داء قديما مرى فينا واستشرى ، ودخل وتغلغل ..

ويكون لك موعد مع الشيخ ، فتجيئه بعد نصف ساعة ، ويعتذر لك ، فيكون لاعتذاره متن وشرح وحاشية ، فيضيع عليك في محاضرة الاعتذار نصف ساعة أخرى . وإن دعوته الساعة الثانية جاء في الثالثة . وإن كان مدرسا لم يأت درسه إلا متأخرا

والطبيب يعلن أن العيادة في الساعة الثامنة ولا يخرج من داره إلى العاشرة ، وتجيئه في الموعد فتجده قد رعد خمسة من المرضى مثل موعدك ، واختلى بضيف يحدثه حديث السياسة والجو والكلام الفارغ ، وتركهم على مثل الجمر ، أو على رؤوس الإبر ، ينتظرون فرج الله ، حتى يملوا فيلعنوا الساعة التي وقفوا فيها على باب الطبيب ، ويذهبون يفضلون آلام المرض على آلام الانتظار ، ويؤثرون الموت العاجل الفاجئ على هذا الموت البطيء المضني

أما الخياطون والخطاطون ، والحذاؤون والبناؤون ، وأرباب السيارات ، وعامة أصحاب الصناعات ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنهم من أكذب خلق الله ، وأخلفهم لوعد . الكذب لهم دين ، والخلف عادة ، ولطالما لقيت منهم ، ولقوا مني ، وما خطت قميصا ولا حلة ، ولا صنعت حذاء ، ولا سافرت في سيارة عامة سفرة ، ولا بعثت ثوبا إلى مصبغة لكيه أو غسله أو تنظيفه ، إلا كووا أعصابي بفعلهم ، وشويتهم بلساني ، وإن كان أكثرهم لا يبالي ولو هجاه الحطيئة أو جرير أو دعبل الخزاعي ، بل إنهم ليفخرون بهذه البراعة في إخلاف المواعيد ، والتلاعب بالناس ، ويعدونها مهارة وحذقا

فمتى يجيء اليوم الذي نتكلم فيه كلام الشرف ، ونعد وعد الصدق ، وتقوم حياتنا فيه على التواصي بالحق لا يعد فيه الرشح وعدا إلا وفى به بعد أن يبلغ مقاعد البرلمان ، ولا يقول الموظف لصاحب الحاجة إني سأقضيها لك إلا إذا كان عازما على قضائها ، ولا يعد الصانع بإنجاز العمل إلا إذا كان قادرا على إنجازه ، والموظفون يأتون من أول وقت الدوام ويذهبون من آخره ، والأطباء لا يفارقون المكان ساعات العيادة ، والخياط لا يتعهد بخياطة عشرة أثواب إن كان لا يستطيع أن يخيط إلا تسعا ، ونمحى من قاموسنا هذه الأكاذيب . تقول لأجير الحلاق : أين معلمك ؟ فيقول ، إنه هنا سيحضر بعد دقيقة ، ويكون نائما في الدار لا يحضر إلا بعد ساعتين

ويقول لك الموظف ، من فضلك لحظة واحدة . فتصير لحظته ساعة

ومتى تقوم حياتنا على ضبط المواعيد وتحديدها تحديدا صادقا دقيقا ، فلا يتأخر موعد افتتاح المدارس من يوم إلى يوم ويتكرر ذلك كل سنة ، ولا يرجأ موعد اجتماع الدول العربية في الجامعة من شهر إلى شهر ، ولا تعاد في تاريخنا مأساة فلسطين التي لم يكن سببها إلا إهمال ضبط المواعيد وإخلافها . ولو أنا حددنا بالضبط موعد القتال ، وموعد الهدنة ، وجئنا (أعني الدول العربية) على موعد واتفاق ، لكان لنا في تاريخ فلسطين صفحة غير التي سيقرؤها الناس غدا عنا

إن إخلاف الموعد الصغير ، هو الذي جر إلى إخلاف هذا الموعد الكبير . فلنأخذ مما كان درسا ؛ فإن المصيبة إذا أفادت كانت نعمة . ومتى صلحت أخلاقنا ، وعاد لجوهرنا العربي صفاؤه وطهره ، وغسلت عنه الأدران ، استعدنا فلسطين ، وأعدنا ملك الجدود

تابدؤوا بإصلاح الأخلاق ، فإنها أول الطريق

علي الطنطاوي